الفصل الثاني عشر

ثلل المراهقين

يرتبط المراهق ارتباطاً وثيقاً بمجموعة النظراء « الثلة » فيسعى إليها سعياً أكيداً ، ويكافح فى سبيل تثبيت مكانته بها ، ويتبنى قيمها ومعاييرها ومثلها السلوكية ، ويتجه إليها — قبل غيرها من المجموعات الأخرى — بوجدانه وعاطفته وولائه !

فالمراهق يشعر فى وسط إخوانه بالمشابهة والمجانسة وبوحدة الأهداف والمشاعر والاهتمامات ، كما يشعر فى الوقت نفسه بالهوة الواسعة التى تفصل بينه وبين الكبار فى كثير من الأحيان . . ويترتب على ذلك ، إحساس المراهقين بحاجتهم إلى التكتل والتآزر يرمون بهما إلى أمرين : الأول تحقيق أهدافهم الحيوية والسعى المشترك فى إشباع حاجات نموهم وتطورهم ، والثانى الدفاع المشترك — إذا لزم الأمر — ضد الجبهات التى تنكر عليهم حقوقهم والتى تضن عليهم بنصيبهم من المسئولية الاجتماعية !

فمن الحاجات النفسية التى يستمين المراهقون بالثلة على إرضائها ، الحاجة إلى الاستقلال العاطفى عن الوالدين والكبار ، والحاجة إلى المخاطرة واكتساب خبرات جديدة فى ميادين الحياة المختلفة ، والحاجة إلى التقدير التى كثيراً

ما لا تجد إشباعاً خارج نطاق الثلة ، والحاجة إلى السند الوجداني الذي يجده المراهق في أخدانه وأصدقائه . .

ويشعر المراهقون — شعوراً طبيعياً — بحاجتهم إلى التداول فيما بينهم في آمالهم وآلامهم ، وفي خبرات الرحلة الهامة من مراحل العمر التي يمرون بها ، وفي آرائهم ونظرتهم الجديدة إلى الحياة المترتبة على هذه الخبرات . فتقوم الثلة في كل ذلك مقام « المدرسة الخاصة » التي يتعلم المراهقون فيها مبادىء الحياة العملية . . عن طريق تجاربهم المشتركة على الحياة ، ومناقشاتهم ، وأحاديثهم ، والاحتكاك بين خبراتهم . . . هذا وتزداد استمساك المراهق « بمدرسة الثلة » كلما بعدت مادة المدارس التقليدية عن خبرات الحياة الواقعية وحاجات النمو في المراهقة ، وكذلك كلما بعدت المسافة بين المراهق ووالديه في الأسرة وتعذر عليه أن يناقشهما في أموره وأحواله ! . . . ومن أمثلة الموضوعات التي يتعلمها المراهق في الثلة ولا يكاد يسمع عنها شيئا في المدرسة والأسرة ، الموضوعات المتعلقة بالنمو الجنسي وعلاقات الجنسين ، وهي في مقدمة الموضوعات التي تصيب اهتمام المراهقين في تطورهم نحو الرجولة .

وكثيراً ما يفسر الآباء انصراف المراهق إلى ثلته وتقيده بأحكامها وبنظرتها إلى الأمور ، على أنه عقوق وتمرد وثورة على الآباء . وقد يكون هذا صحيحاً في الحالات الخاصة التي لا يعترف فيها الآباء بتطور المراهق نحو الرجولة ، ولكنه ليس صحيحاً على إطلاقه . . . فالاهتمام المتزايد بمجموعة

النظراء هو — فى حالته العامة — مظهر من المظاهر الطبيعية للنمو النفسى للمراهقين ، ولرغبتهم فى توسيع دائرة خبراتهم وعلاقاتهم الاجتماعية خارج نطاقها الضيق السابق .

التوسل إلى الثقة :

ومما يدل على الأهمية القصوى للثلة فى المراهقة ، الكفاح المرير الذى يضطر إليه بعض المراهقين للحصول على قبول الثلة لهم ولتعزيز مكانتهم فيها . وتمثل القصة التالية — التى يرويها أحد المراهقين عن نفسه — أحسن تمثيل ، هذا الكفاح فى سبيل التوصل للثلة . كما توضح القصة أيضاً بعض النواحى التى يقوم عليها تقدير المراهقين بعضهم لبعض . . والثلة فى هذه الحالة من ثلل القرية ، فكانت إحدى صعوبات المراهق فى سعيه إليها أنه ينتمى إلى أسرة (بندرية) الأصل ، تختلف عن أسر الأقران فى أساليب الحديث والتفكير والملبس . . وكان من صعوباته كذلك أنه كان يصغر أفراد الثلة سناً ، كما كان متخلفاً عنهم فى إلمامهم ببعض الموضوعات . أما صعوبته الكبرى ، فكانت امتلاء جسمه وما ناله بسبب ذلك من تجريح وإهانات !

يقول هذا المراهق : « كانت القرية مقسمة إلى أجزاء ، أطلق على كل منها (جنب) ، وألف تلاميذ كل جنب (نادياً) لهم . . ولكى أكون جديرا بعضوية النادى فى جانبنا من القرية ، كان على أن أجيد لعب الكرة . ولما كانت والدتى تقف لى بالمرصاد حتى لا تتسخ ثيابى ، فقد اكتفيت بدفع

الاشتراك المطلوب للنادى والمفاخرة به أمام النوادى الأخرى والمساهمة فى تنظيم مبارياته معها . . . ولكن باقى الرفاق لم يرضوا عن هذا الموقف فكانوا يهملون وجودى على صورة تبعث المرارة فى نفسى . . وكنت إذا أبديت رغبتى فى اللعب، لا يسند إلىّ إلا دور (الجون) وذلك عندما لا يوجد من يقوم به غيرى !

وكان من أفراد الثلة من يتخذنى موضعاً للسخرية (التريقة) بسبب امتلاء جسمى ، ودأب أحدهم على أن يقول لى كلما رآنى : « ياتخين . . ياعشل . . . أنت بتاكل إيه ؟ » وكنت أسمع كذلك بسبب صغر سنى : « روح ياشاطر العب مع اللى زيك . . لسّه صغير . . . عامل زى البنات ! » وكانت هذه العبارات تجعلنى أنطوى على نفسى على قدر شغف بوجودى مع جماعتى ، فكنت أختلق الأسباب للانسحاب عند حضور أفراد (الثلة) ممن يوجهون إلىّ أمثال هذه العبارات . . »

ولاحظ المراهق أن أفراد الثلة يتهامسون ببعض الأحاديث فيستغرقون فى الضحك خلال ذلك . ثم أدرك أنهم يتحدثون فى موضوعات جنسية يحاولون إخفاءها عنه .. وجعله ذلك يفكر حتى اهتدى إلى حل يتيسر له الإحاطة بما يجهله ويقربه إلى أفراد الثلة . فاشترى (سيجارتين) وأهداهما إلى أحد الظاهرين فى المجموعة ممن يبدون على اطلاع واسع بالموضوعات الجنسية ، وطلب منه أن يشرح له هذه الموضوعات .. ويقول فى ذلك : « وكم كان عجبى حين ناقشنى متسائلا — ما أصلى ؟ ومن أين أتيت ؟ ولم

يحضرون للعريس سبعة ليالى عشاء فاخراً ؟ .. » . وشرح له زميله كذلك وسيلة « الاستهناء » وغير ذلك من الموضوعات .. فبدأ المراهق يستعين بفهمه الجديد على كسب ثقة إخوانه ، بيد أنهم ظلوا يسخرون منه للاحظتهم خجله فى أثناء حديثه إليهم ، كما لاحظوا جهله ببعض المصطلحات والرموز الخاصة التى تستخدمها الثلة فى الأحاديث .

ويستأنف المراهق وصفه لكفاحه فى الثلة ، فيقول :

« .. حدث بعد ذلك أن انقسمت الجماعة إلى فريقين ، فانضممت إلى الفريق الذى يعاملنى معاملة أحسن . ولكننى أخطأت بعمل ذلك ، فقد زاد هذا من ملاحقة أعضاء الفريق الآخر من المشهورين (بثلة الأدب) وسبابهم لى . وكان من بينهم الناصح الذى استشرته من قبل ، فاستمالته بسيجارتين وشكوت له سوء معاملة من معه . . فقال إنه يجب علاج المشكلة من جذورها بمداومة « الاستهناء » فهو كفيل بإنقاص وزنى إلى الربع !! أما أنه يؤثر على زملائى فليس بالعلاج . . . »

نشاط الثلة فى المراهقة :

ليس هناك طابع واحد مميز لمجموعات المراهقين . فلكل مجموعة منها طابعها الخاص الذى يتأثر بنوع البيئة المحيطة ، وبتكوين المجموعة ، وأوصاف الأفراد المشتركين فيها من حيث السن والتعليم والمستوى الاقتصادى والاجتماعى ، ومن حيث الظروف النفسية والخبرات الخاصة بكل منهم .

وهناك مع ذلك بعض الاتجاهات المشتركة فى نشاط المجموعات الحرة للمراهقين —

فمن بين ما ينصرف إليه نشاط المراهقين فى ثلثهم الحديث والمسامرة.. وتدور بعض الأحاديث حول روايات السينما ، وشخصيات الأساتذة ، وأخبار الحى ، وأنباء المباريات والبطولات الرياضية ، وموضوعات السياسة ، والموضوعات الأخرى التى تصيب اهتماماً مشتركا من أفراد الثلة . . ويتجه جانب كبير من أحاديث المراهقين — ومن تصرفاتهم — إلى المفاخرة بالقوة البدنية والبحث عن وسائل تنمية الجسم وتقوية عضلاته . . أما القسط الأكبر من هذه الأحاديث فينصرف — تلميحاً أو تصريحاً — إلى موضوعات الجنس . فيتداول المراهقون فى أمور فتيات الحى والفتيات عموماً ، ويتحدثون عن مغامرات لهم — صحيحة أو مختلقة — فى ميدان الجنس ، ويتبادلون المعلومات حول تغيرات البلوغ (ويناقشون بعضهم أحياناً بهذه التغيرات ويتباهون بها) وحول خبراتهم المرتبطة بالاحتلام والنشاط الجنسى الذاتى والأحاسيس الجنسية بوجه عام . . وقد عرضنا فى الفصل التاسع من الكتاب ، عينة من المعلومات الجنسية التى يستقيها المراهق من الثلة ، يتبين منها أن أغلب هذه المعلومات مشوشة مضللة ، وأنها تعرض أحياناً بطريقة تزيد من قلق بعض المراهقين نحو النواحى الجنسية !

ومهما يكن من أمر ، فإن المام المراهق بموضوعات الحياة الجنسية واتساع خبرته فى ميادين الفتيات ، من أسباب إصالة مركزه بين أفراد

الثلة . كما أن تأخره فى هذه المعارف يجعله موضعاً للتندر والزراية من إخوانه ، على ماأرأينا فى المثال المتقدم . . . ويمضى الراهقون ممن هم أصغر سنا أو أقل خبرة باهتمام شديد إلى أحاديث أقرانهم ، بنية اكتساب المعلومات التى تنقصهم . ويحاولون مجاراة الآخرين فى أحاديثهم بقدر المستطاع . وقد يضطرون إلى اختلاق الأقاصيص عن مغامرات لاسند لها من الواقع ، لتدعيم مركزهم بين أفراد الثلة .

ولا يقتصر نشاط المراهقين فى هذا الميدان على الأحاديث وحدها بل يتعداها أحيانا إلى وسائل أكثر إيجابية تختلف باختلاف ثلل المراهقين . . فمن هذه الوسائل مما كسة الفتيات فى الطريق ، وتبادل الكتب الرخيصة والصور الجنسية ، والجلوس إلى المقاهى لمتابعة الفتيات والتعليق على الراقصات والغانيات منهن ، وارتياد المراهقين — جماعات — دور اللهو والمسارح الرخيصة . . ومنها أيضا الغزوات الجنسية لبعض الثلل المنحرفة . . . ومما يذكره بعض المراهقين القرويين أن الثلة كانت تبحث عن حفلات الزفاف وماشابهها فى القرية فلا يفوتها حضور حفلة منها ، وذلك بغرض التطلع إلى الفتيات والراقصات فى هذه الحفلات .

وللقوة البدنية وللفتوة والشجاعة منزلة خاصة فى ثلل المراهقين ، ترتفع بصاحبها فى نظر أفراد الثلة .. وقد روى كثيرون أن ضآلة تكوينهم الجثمانى كانت تحول دون احتلالهم المنزلة المقابلة لسنهم فى الثلة ، فكانوا يضطرون إلى مصاحبة صغار السن من أفرادها وعدم تخطيهم المنزلة المخصصة لهؤلاء . ولجأ بعضهم إلى الأعمال العدوانية التى تظهرهم بمظهر البطولة ، فى محاولتهم لتقدم الصفوف بين الأقران !

ويتجه جانب من نشاط الثلة — وخاصة فى ثلل المراهقين من صغار السن — إلى المقاتلة والمصارعة الحرة ومحاولات التغلب البدنى . . وفى بعض الأحياء ، ينقسم المراهقون إلى فريقين متنافسين أو أكثر ، يحاول كل فريق أن تكون له الغلبة على غيره ، ويلجأون فى ذلك إلى الالتحام اليدوى وإلى وسائل القتال الأخرى أحيانا . . . ومما يرويه أحد المراهقين أن ثلته كانت تجتمع فى متنزه قريب لتضع « برنامجاً للمشاغبات اليومية » وكانوا يصنعون النبال ويجمعون (الظلط) ويتمرنون على إصابة الأهداف استعداداً لمناورة الفريق الأخر !

ويدور كثير من نشاط المراهقين — علاوة على ماسبق وصفه — حول محاولة الظهور بمظهر الرجال الأحرار المتصرفين فى أمورهم . . . ومن وسائلهم فى ذلك الجلوس إلى المقاهى ، والتدخين ، وإنفاق المال لمجرد التباهى والظهور . . ومنها أيضا محاولاتهم فى تغيير الأوضاع الاجتماعية القائمة والثورة عليها ، التى تعرضنا لها فى الفصل السابق .

وينصرف نشاط بعض الثلل إلى الرياضة والألعاب المختلفة ، التى من أهمها كرة القدم ، وفى المدينة ركوب الدراجات أيضاً . . على أن النشاط فى كثير من الثلل نشاط غير موجه ، حيث لاتجد الثلة ماتقوم به غير التسكع فى الطرقات أو المشاغبة والأعمال العدوانية الاستفزازية ! !

ولا شك أن عبث بعض الثلل الحرة للمراهقين يعود فى جانب كبير منه إلى النقص فى إمكانيات البيئة المحيطة من حيث الوسائل الصحيحة

استغلال الفراغ ، ووجود الأندية ومسكرات الشباب وماشابه ، مما يمكن لها أن تستغل طاقة المراهقة وإمكانياتها الضخمة استغلالاً موجهاً مفيداً للمراهق ومجتمعه .. ومما يبشر بالخير أن البلاد تتجه بخطوات واسعة — في عهدها الحاضر — نحو الإكثار من الأندية والمسكرات ، مما يرجى أن يؤتى ثماره بين المراهقين والشباب .